خصائص المدائح النبوية

للشيخ ظفر أحمد العثماني التهانوى

الدكتور أبو سفيان الإصلاحی☆

نعرف جيداً أن العلاقة توجد بين الهند والعرب بحيث اللغة والأدب والحضارة منذ من قديم وأن آثار الثقافة العربية قد تسربت فى ثقافة البلاد الهندية ومعيشتها وكذلك أيضاً أن كثيراً من الملامح للحضارة الهندية توجد فى الثقافة العربية والاتصالات التجارية قديمة ووطيدة بينهما ونحن ندرس باحاديث مختلفة أن رسول الله ﷺ كان يعرف البلاد الهندية جيداً والاسواق الكبيرة للتجار الهنديين كانت موجودة فى بلاد العرب وأن الإسلام قد دخل فى المناطق الهندية الجنوبية بالروابط التجارية ١ وفى هذه الأيام يقال بدون تردد أن الاسلام يكون باقياً فيها إلى الأبد ـ لأن المسلمين اسسوا مراكز عديدة ومدارس مختلفة فى جميع انحاء البلاد ولتنشيط حضارتهم وانهاض اللغة العربية وآدابها وتخرج العلماء الكرام والباحثون العظام والشعراء الكبار منها و أدوا خدمات باهرة والفوا كتباً دينية وعلمية على موضوعات مختلفة ورتبوا ايضاً كتباً قيمة حول السيرة المباركة وأن الشعراء قرضوا الأبيات عن شخصية رسول اللهؐ وذكروا زوايا سيرته فى دواوينهم ٢ـ حينما نتصفح تاريخ

☆ القسم العربي بالجامعة الاسلامية علي جراه

الشعر العربي الهندى. نجد أن المدائح النبوية توجد قبل بداية القرن الثامن[3]. والشاعر الأول للمدائح النبوية القاضى مقتدر بن القاضي ركن الدين الشريحي والكندى والدهلوى (٧٠٣ - ٧٩١ھ) يوجد فى القرن الثامن وهذه السلسلة الذهبية استمرت إلى العصر الحديث[4]. وكان الشيخ العثماني[5] (١٣١٠ - ١٣٩٥ھ) واحداً منهم وأنه كان عالماً كبيراً من علماء القرن العشرين العربية والأردوية وألف مؤلفات عديدة في كليهما وكان من مؤلفاته القيمة "اعلاء السنن فى الحديث" يحتوى على عشرين جزءًا. وأنه قرض قصائد مختلفة وثلاث المدائح النبوية والمراثى للسيد حكيم الأمة الشيخ أشرف على التهانوى وشيخه محمود حسن الديوبندى ومولاه خليل أحمد وتلميذه الرشيد العلامة محمد ادريس الكاندهلوى وزوجته تغمدهم الله بلطفه الأبدى وبعد دراسة مراثيه أنا وصلت إلى هذه النتيجة أنه يضع مهارة تامة على هذا الموضوع.

في هذا المقال أحاول أن أقدم صورة اجمالية قصيرة عن خصائص مدائحه النبوية قدم الشيخ العثماني شمائل النبى صلى الله ﷺ ومعجزاته وخدماته الباهرة و مصائبه العظيمة وأقواله الجيدة فى طرف ووصف خصال الخلفاء الراشدين وصَحَابَتِهِ واضاحى حسن وحسين رضي عنهما وحادثة كربلاء عدو ان اعداء النبى ومجيئه إلى المدينة المنورة وحالة العرب قبل بعثة الرسول ونزول السعادات بولادة النبى الكريم ﷺ وانحطاط المسلمين وعشراته وزلاته فى طرف آخر . وقدم الشيخ العثمانى افكاره و أحاسيسه وعواطفه بألفاظ جميلة

ومعانى بارعة وتراكيب جيدة وتشبيهات نادرة واساليب رائعة . وهذه الناحية ظاهرة من جميع أبياته أن العثمانى يحب النبى ﷺ حباً جماً ويقر ذات النبى استناداً واتكاءً لنفسه وقرة لعينه فى هذه الدينا وشافعاً فى دار الآخرة ودعامة للمسلمين فى مصائبهم واحزانهم وبدراً منيراً فى الليالى وشمساً مضيئة فى الزمان ومجيراً كاملاً للمصابين ورشاداً للضالين وساقياً للظماء وانيساً للمتوحشين بالنوى ورجاءً للبائسين ـ والآن اشيرإلى ميزات مدائحه النبوية فى ضوء أبياته العديدة أولاً أنا اذكر الأبيات التى فيها يشبه النبىّ بالبرق واللؤلؤالفلق والغياث والربيع والياقوت فى حجر وما إلى ذلك ـ

زال الظلام ولاح النور فى الافق • برق تألق فى داج من الغسق ٦
أتاك ربك ما لم يؤته أحداً • من الجمال كمثل اللؤلؤ الفلق ٧
كنت الغياث الايتام و أرملة • أمست من الجوع كالبالى من الورق ٨
انت الحياة لمن ماتت عزيمته • أنت الربيع لأهل الجدب الرمق
و أنت فى الناس كا لياقوت فى حجر • وأنت فى الخلق مثل النور فى الحدق ٩

بعد استماع الأشعار المذكورة نحن نعترف بعظمته الشعرية بدون حكم العقل ـ وأنه كان عارفاً بشخصية الرسول من جميع الجوانب وتعليماته الرافعة وقادراً على تقديم آرائه وعواطفه فى أسلوب جذاب ـ لا شك فيه أنه كان شاعراً مطبوعاً ، ذاكرته

فياضة تتفضل الكلمات والمعاني من قلبه كما يقول هو عن قصيدته التي قرضها للكتاب والكوكب الدرى (مؤلفه : الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي) ولشارحه ومحشيه (الشيخ محمد زكريا) "أنا أرسل التقريظ للكوكب الدرى، وإن أوفى الوعد بعد زمن مديد، لكن هذه حقيقة أن الورود ليس ممكناً بدون دراسة الكوكب الدرى وهذا أمر صعبٌ لي أن اقرض الشعر بتكلف وتصنع لأن الأشعار تدور وتجول في الذهن في أوقات الصلوٰة والأذكار وأنا اشعر بالاذية منها وأنا لا أشعر بأي أذية من الورود والعواطف القلبية ـ لكن الورود يحتاج إلى محرك قوى وعامل عميق[١٠]"ـ

أن الشيخ العثماني قد ذكر أن العرب كان تحت سيطرة الظلمات وظلم الغيوم والجهالة ، لكن حينما شَرَّف الرسول العرب بقدومه الميمون استنار جميع اكناف العرب واشرقت قلوب أهل العرب ـ أن الشيخ العثماني يصور ذلك المنظر الانيق والبهيج هكذا:

نبي أتى والناس في فحمة الدجى • من الظلم في شرمن الجهل منكر
فلألأ نورالحق والرشد ساطعاً • بطلعة ميمون النقية أزهر
محمدن المبعوث للناس رحمةً • لوجه منير مستنير منور [١١]

ويقول في مديحة أخرى أن البركات والألطاف اتصفت بذات النبي ﷺ :

منه الحياة لكل حق ميت • منه الممات لكل قول زور
منه البياض لكل قلب أسود • منه السواد لكل عين ضرير
منه البهاء لكل وجه عابس • منه الضياء لكل نات قتور [١٢]

ويقرض أيضاً عن مجيئه المبارك والسعيد

زال الظلام ولاح النور فى الأفق • برق تألّق فى دأج من العنق
برق من الطور أوبدر على جبل • ببطن مكة منشق على فلق
قدجاء والناس فى هرج وفى حرج • والظلم عم بسيط الأرض بالقلق[13]

هذه ناحية من نواحى العصر الجاهلى أن العرب كانوا إنغمسوا فى المعاصى والخمور والأزلام والأوثان والألاعيب وكانوا يقضون حياتهم فيها ويفتخرون بأبائهم واحيائهم وشعرائهم وكانوا مبتعدين ابتعاداً عن تكريم الإنسان ـ اشار العثمانى إلى هذه الناحية فى أسلوبه الخاص ـ

والجهل كالليل قد أرخى ذوائبه • فى شيم كفر على الآفاق منطبق[14]

ويقول فى قصيدة أخرى :

قد جاء نا والناس فى ظلماتهم • والجهل قائدهم لكل فجور
مرجت عمودهم وضاع أمانهم • والظلم شيمة تابع وخفير
وأدوا البنات فيالها من قسوة • كادت تخر لها جبال ثبير
عبدوا الحجارة من سفاهة رأيهم • وصبوا إلى حب النساء الحور
كانت صلواتهم المكاء برقصة • فيها الصياح بشهقة وزفير
وطوافهم بالبيت كان معرة • عُريا إناثهم وكلّ ذكور[15]

أنا نقلت الأشعار التى فيها ذكرت أن العرب كانوا يقاسون المجاعة والاصابات والظروف الموذية الأخرى قبل بعثة الرسول ﷺ وبعد بعثته أنهم واجهوا الحالات السعيدة والبهيجة ـ هكذا

حينما هاجر النبي الكريم ﷺ إلى المدينة المنورة فازدهرت أجواءها، تنعمت بيئاتها صورها العثماني التهانوي في أشعاره:

ولما تمادى القوم في الغي والأذى • ترحّل عنهم رحلة المتضجر
ترحّل عن قوم فمالت جدورهم • وحلّ على قومٍ بخيرٍ مفجّر
وقد نزلت منه على أهل طيبة • شابيب فضلٍ في سناءٍ مشتّهر
هنيئاً لأنصار النبي سعادةً • أبتها فئامٌ من ضلال التفكر
وفطيبة طابت واشمخرت إلى العلا • وقد لألأت أقطارها بالتنور[٦٦]

وذكر العثماني في مديحه" وسيلة الظفر" فتح مكة المكرمة وقدم عفو الرسول الفائق ومسامحته النادر أن رسول الله ﷺ قد صفح عن اعداءه الألداء ونسي جميع أفعالهم القبيحة والشديدة - وهو يقول:

فتح البلاد بحلمه وبجوده • وعطائه ونواله المشكور
واها لخطبته بمكة بعد ما • تهر العد و بسيفه المشهور
يا أهل مكة ما ترون جزاء من • قطع الحبال وعضّني كعقور
عجباً لرحمته على أعدائه • ولعفوه عن خصمه المقهور
فلقد عفا عن قدرة عمن طغىٰ • وبقي عليه وسامه بقطير
فاولئك الطلقاء ومنّ عليهم • كرما فأسلم كلهم بشكور[٦٧]

ذكرت في بداية المقالة أن العثماني بحث أيضاً في مدائحه أصحاب النبي الكريم والخلفاء والراشدين وواقعة كربلاء لأنه بعيد عن تصور المدائح المحدودة ويفهم أن المدائح امتدت إلى العصر

الجاهلى والغزوات والسرايا وخلفاءه الراشدين وأصحاب النبى الكريم والتاريخ الإسلامى و ما إلى ذلك وما انتهت إلى صفاته العالية وشخصيته البارزة فقط كما انتم ترون عند كثير من الشعراء للمدائح وأن المدائح للعثمانى تعلقت بالمباحث العديدة التى تذهب إلى شخصية النبى الكريم ﷺ مثلاً يلقى ضوءاً على الخلفاء الراشدين :

أبو بكرن الصديق أوّل مؤمنٍ • وحيث رفيق بالمغار المحجر
ابو حفض ن الفاروق خير خليفة • أعزّ به الإسلام فى كل محضر
وعثمان ذوالنورين افضل صابرٍ • على الموت ظلماً بالقضيب المشهّر
على فتى الفتيان بطلٌ مجرّبٌ • وما أبصرت عينا شجاع كحيدر[1]

وذكر الخلفاء الراشدين فى مديحة اخرى بالتفصيل، لكن انقل أربع ابيات منها: وهو يقول عن أبى بكرن الصديقؓ ـ

قد كان ارحمهم بأمة أحمد ـ اسخى الأنام بفضله الموفور

ويقول عن عمرؓ :

فاق الملوك بعدله وبفضله • وبعلمه بسياسة التدبير

ويقول عن عثمان ذى النورين :

لم يرض لما حاصر واه بداره • ظلماً بشق عصاهم المسمور

ويقول عن علىؓ :

اسد الاله وسيفه المسلول فى • ميدان خيبر فى أجل ظهور[19]

وهكذا أيضاً ذكر شخصية الحسن وحسينؓ و اهميتهما وقرّر شهادة حسين خيبة وخسارة للأمة الإسلامية وهو يقول:

ثم ابنه الحسن الرضى المجتبى • غوث الأنام بكل يوم تُبور
أحبب بعترته الزكية انها • لنجوم بدر بالفلاح منير
ووجوه من عاداهم مسودّة • بدم الحسين بكربلاء القور
قتلوا وقد علموا بأن قتلهم • حب النبى تعم وبدر يدور
ريحانة الإسلام قرة عينه • زين العشيرة رغم كل فخور
من كان مركبه النبى ظهره • تبالهم تركوه رهن قتير
أحسين لا تبعد فذكرك خالد • والذكر للإنسان خير عمور[20]

وبعد اذكر الأسلوب الخاص الذى يوجد عند العثمانى يعنى أنه يخاطب النبى الكريم بأنت" وهذا الأسلوب يذكر خصائص رسول الله ﷺ ويتمتع القارئون بلذة خاصة وفرحة مرموقة : أنا اكتفى فقط على عدة أبيات لأجل الامتداد :

أنت الأنيس لمن توحّش بالنوى • أنت الجليس لمفرد مكسور
أنت الكريم ابن الكرام زوى العلى • ولانت ذونسب أضاء نمير
أنت الشفيع وأنت خير مشفع • يوم التناد وانت خير صبير[21]

ويقول فى قصيدة اخرى:

أنت البشير لمن طابت سريرته • بجنةٍ بالها من خير مرتفق
وأنت أشرفهم بيتاً ومنزلةً • وأنت ذو نسب كا لشمس مؤتلق
وأنت أجمل من يرنو بمقلته • وخير لاقٍ بوجه مشرق طلق[22]

والآن أقدم الأشعار من مدائح العثمانی التی تجدون تأثيرات القرآن الكريم فيها ولاشك فيه أن الشاعر الذی يكون عارفاً بأساليب القرآن فهو يكون عارفاً وحاذقاً فی المدائح لان عائشة رضـ اجابت "حينئذٍ سئلت عن سيرة الرسول صلی الله عليه وسلم "كان خلقه خلق القرآن" حينما ندرس هذا الشعر لعثمانی :

لقد جاهدوا فی الله حق جهاده ٭ صلوا فی لهيب الحرب ذات الشعَرِ[٢٣]

نجد أن العثمانی استعمل آية سورة الحج "وجاهدوا فی الله حق جهاده" للمصرعة الأولی نسقها بطريقة جيدة فی الشعر۔

حينما نصل إلی شعره الآخر:

نظام لحق بل قيام لأهله ٭ نكال لطاغی الشر للحق منكرٍ[٢٤]

تجيئی هذه الآيات التالية

"فأخذه الله نكال الآخرة والأولی" (والنازعات: ٧٩/ ٢٥)

"فجعلناها نكالا لمابين يديها وما خلفها موعظة المتقين " (البقرة٢٨/ ٦٦)

ويقول فی سورة المائدة

فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله" (المائدة: ٥/ ٣٨)

وقرض العثمانی هذا الشعر

فنادی بصوت زلزل الأرض مرة ٭ الا فأقبلوا قول التدبيرا لمذكر[٢٥]

فـی ضـوء هـذه الآيـات: مثلاً قـال سبحانه وتعالی فی سورة

الزلزلة:

"اذا زلزلت الأرض زلزا لها"(الزلزلة ٩٩/١)

وقال ايضاً فى سورة الأحزاب "هُنَالِك أبْتُلِىَ الْمُؤْمِنُوْنَ وزُلْزِلُوا زلزالا شَدِيْداً (الاحزاب: ٣٣/١١)

وفى هذا الشعر التالى نجد تأثير القرآن الكريم ايضاً:

اقروا بأن الله لاربّ غيره • وأنى رسولٌ من مليك مقتدرٍ[26]

يعنى هذا الشعر قرضه العثمانى فى ضوء آية سورة القمر:

"فى مقعد صدق عند مليك مقتدر"

وشعره الآخر يوجد تحت أسلوب القرآن ويسعى العثمانى أن يضم مفاهيم سورة لهب فى الشعر التالى:

ونادى شقى القوم تبًا لمن دعا ـ فتبت يداه فى لهيبٍ مُسعر[27]

عند ما نجيئى إلى هذا الشعر:

سبحان من برأ الأكوان من كلم • سبحان من خلق الانسان من علق[28]

تجيئى مفاهيم هاتين الآيتين فى أذهاننا!

قال سبحانه فى سورة مريم:" سُبْحَانَه إذَا قَضىٰ أمْراً فَإنَّمَا يَقُوْلُ لَهٗ كُنْ فَيَكُوْنَ" (مريم: ٩ . /٣٥)

وقال سبحانه فى سورة العلق "اِقْرَأبِاسْمِ رَبِّك الَّذِىْ خَلَقَ ـ خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ" (العلق : ٩٦/٢)

وصور القرآن الكريم يوم الآخرة ويوم النشور فى آيات عديدة وهذا المفهوم قدمه الشيخ العثمانى فى هذا الشعر:

هو سيد الرسل الكرام أما مهم * وله لواء الحمد يوم نشور [29]

أنا انقل ههنا آية منها

"فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ" (سورة فاطر ٣٥: ٩)

وذكر الشيخ العثمانی قصة المعراج وتقرب رسول ﷺ بالله تعالى فی هذ الشعر:

حتى دنا من ربّه فی منزل * حتى قاب قوسين بخير ضمير [30]

أنا اقول: إن العثمانی أدمغ مفهوم آيتی سورة النجم بطريقة سهولة: قال الله تعالى :

"ثم دنا فتدلىٰ فكان قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ" (النجم: ٥٣/ ٨-٩)

نحن ندرس فی المدائح للشعراء العرب والهنود أنهم يدعون رسول الله متضرعين ومبتهلين للاستغاثة والاستعانة فی المصائب والاحزان والاكتئابات ويجيئون حضورهٔ باصاباتهم وأزمات الملة الاسلامية ويقرون خطيئاتهم وخطيئات القوم ويقدمون اهاناتهم واعتذاراتهم واضطراباتهم وضعفهم بين يديه ويعيدون هذا المفهوم مراراً فی مدائحهم ويقولون أننا نرجو منكم أن تشفع فی دار الآخرة لاننا نرى لا قيمة لنا بدون شفاعتكم يارسول الله ! هكذا ايضاً يعتزرون بأننا لا نستطيع لحصول النجاة من الانحطاط و الأندثار فی هذه الدنيا ولانتمكن لانقاذ انفسنا من عذاب النار والسلاسل و الأغلال والسعير بدون معونتكم يا حبيب الله ! الآن انقل ابياتاً تضم

هذه المعانی والافکار :

أنظر إلى ظفرٍ قد جاء معتذراً • والطف بصبٍ، كئيبٍ، هائم، شقق
فامنن علينا رسول اللّه ليس لنا • ألا اليك النجا فی الحادث الأزق
أنت الشفيع لنا إذلا يقوم لها • سواك فی الناس يوم الحشر والصعق[31]

ويقول الشيخ العثمانی فی قصيدة اخری

فارحم رعاك الله كربة عاجز • دنف كئيب هائم متبور
يا رحمة للعالمين : غياثهم • انظر إلى ظفر هوی بقعير
انظر فلا أجد سواك لنا إذا • صعق الأنام بنقرة الناقور
وانصر إذا حضرالحمام وافردو • نی فی البقيع لمنكر ونكير[32]

أنا بحثت عن النكات الرئيسية لمدائح الشيخ العثمانی فی السطور السابقة ووصلت إلى نتيجة بأن الشيخ العثمانی أبدی براعته ومهارته ونبوغه فی المدائح النبوية وفاق اقرانه فی هذا المضمار وكل واحد يمكن له أن يجد هذه الخصائص الفنية فی جميع مدائحه وأنه لايدور حول شمائل النبی الشخصية فقط بل يوسع شخصية النبی واعماله آثاره فی جميع نواحی ايضاً الحياة التی امتدت إلى قرون و قرون وتتمتع الشيخ العثمانی بأسلوب سهل نقی صافی رقراق ويوثر المشاعر و القلوب ولكن من سوء الحظ أن الشيخ العثمانی كان بامكانه أن يترك لنا مجموعة كبيرة متنوعة حول المدائح النبوية ولكنه اقتصر با لقليل ولكن لا بأس .

قليل منك يكفينی ولكن • قليلك لا يقال له قليل

☆☆☆

الحواشی

(١) أنظر للتفصيل: المسالک والممالک، دار القلم، القاهرة، ص: ٦١-٦٦

(٢) أنظر: شعراء الرسول- سعيد الأعظمی الندوی - مكتبة الفردوس الاسلامية، لكناؤ

(٣) كتاب الحيوان، ٧٥/٧

(٤) أنظر لتراجم الشعراء الهنود مقالة الدكتوراه "المدائح النبوية بالهند باللغة العربية" للدكتور محمد صدر الحسن الندوی - هذه المقالة ما نشرت حتی الآن

(٥) أنظر لسوانح حياة الشيخ وخدماته: تذكرة الظفر - مولانا عبد الشكور - الطبعة الأولی - مطبوعات علی كمالية - فيصل آباد (باكستان) ١٩٧٧ء ص: ١٢-٥٢٨

(٦) نور علی نور - ظفر أحمد التهالوی - مطبع جمال برقی پريس، دهلی - ربيع الأول ١٣٥٤هـ ص: ١١

(٧) أيضا، ص: ١٢

(٨) أيضا، ١٣

(٩) أيضا، ١٥، ٩/٢ الكوكب الدری: مجموعة دروس (محاضرات) جمعها تلميذها الشيخ يحيی الكاندهلوی وتنشرها ابنه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوی مع تعليقاته باسم "لامع الدراری"،

(١٠) فهرسة تاليفات شيخ - مرتبه: سيد محمد شاهد - مكتبة يادگار شيخ، سهارنفور - ١٩٩٧ء - ٢٨٢/٣-٢٨٣

(١١) نور علی نور، ص: ٥

(١٢) وسيلة الظفر - العلامة الأديب الفقيه المحدث الأديب ظفر

أحمد العثملى التهانوى ـ مطبعة معارف باعظم گڑھ ـ ١٣٦٣ هـ، ص: ٤

(١٣) نور على نور، ص: ١١

(١٤) أيضاً، ص: ١٢

(١٥) وسيلة الظفر، ص: ٥

(١٦) نور على نور، ص: ١٠

(١٧) وسيلة الظفر، ص: ٧

(١٨) نور على نور، ص: ٢ـ٣

(١٩) وسيلة الظفر، ص: ١٠ ـ ١١

(٢٠) أيضاً، ص: ١١ ـ ١٢

(٢١) أيضاً، ص: ١٣ ـ ١٤

(٢٢) نور على نور، ص: ١٤ ـ ١٥



(٢٣) أيضاً، ص: ٤

(٢٤) أيضاً، ص: ٦

(٢٥) أيضاً، ص: ٧

(٢٦) أيضاً، ص: ٨

(٢٧) أيضاً، ص: ٨

(٢٨) أيضاً، ص: ١٦

(٢٩) وسيلة الظفر، ص: ٤

(٣٠) أيضاً، ص: ٩

(٣١) نور على نور، ص: ١٦

(٣٢) وسيلة الظفر، ص: ١٤ ـ ١٥

☆☆☆